الأخطاء اليونانية في الفلسفة الإسلامية(*)

(*) نشر بمجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية ــ الهيئة القومية للبحث العلمي ــ العدد (10) 2003 ف .

تعرضت الفلسفة الإسلامية ، للكثير من الانتقادات والاتهامات ، التي تصل إلى حد العداء السافر . واصفة إياها بعدم الأصالة ، وأنها مجرد فكر تلفيقي . وأن ما هو موجود فيها من لمحات فلسفية . ما هو إلا الفلسفة اليونانية مكتوبة باللغة العربية بل أنه ، حتى في هذه الجزئية هناك قدر غير قليل من التشويه وبالأجمال ليست هناك فلسفة إسلامية وهذه النتيجة تقع تحت مقولة أوسع ، وهي أن الفكر الشرقي عموماً غير قادر على التفكير العقلي المجرد .

تحملت الفلسفة الإسلامية ــ بصبر بطولي ــ هذه الهجمات الداخلية والخارجية من المدافعين أو من المنتقدين ، على حد سواء . لان كل ما قيل ــ دفاعاً وهجوماً يقع ببساطة خارج الفلسفة الإسلامية لانهم جميعاً قرأوا الفلسفة الإسلامية قراءة يونانية ابتداء من تحديد المصطلح الذي طبق بشكل واسع على كل تفكير دون مراعاة الاختلاف والتباين وتمايز الأنشطة الثقافية التي تصدر عن تركيبات ذهنية مخالفة لليونان .

إن تبيان الخط الفاصل في أنماط التفكير واتجاهات الحضارات من حيث الأسس والمناهج ، يسمح لنا ليس فقط بالرد على هذه الاتهامات ، إنما يظهر لنا الامكانات الهائلة والأساليب التقنية وآلية بناء الأنساق الفكرية التي ابتكرتها واستخدمتها تلك الحضارات

في التعبير عن مجمل روحها وخصائصها في إشكال متعددة سواء في العلوم أو الفنون .

فخصائص الحضارة اليونانية هي التي حددت وبشكل واضح طرائق وأساليب الدراسة ووجهت العقل اليوناني إلى زاوية محددة في موضوعات معينة تتفق مع ذاتها وتختلف عن غيرها من الحضارات ، وكلما كانت الفكرة أكثر دقة في التعبير عن خصائص حضارتها كانت يونانية أصلية ، الأمر الذي يعطينا القدرة على تمييز أفكار هذه الحضارة ومناهجها ووضعها في مكانها الصحيح ، ومن تم نستطيع مقارنتها بخصائص حضارة أخرى وأدراك أوجه الشبه والاختلاف بينهما ، بل نستطيع متابعة كل فكرة في تطورها في كل مرحلة من المراحل التاريخية والمنطقية وبعد ذلك نستطيع أن نقول ــ بكل راحة ــ أن هذه الفكرة تتطابق مع اليونان أما الأخرى فتخالف المنهج اليوناني ولا تتناسق معه .

على هذا الأساس ــ وهو أساس أراه قوياً يمكن دراسة الفلسفة الإسلامية بعد تحديد ماهية الفلسفة اليونانية ومنهاجها عن طريق دراسة الأسس التي تستند عليها نظريات اليونان في كافة المجالات . أي دراسة خصائص النظرة اليونانية وتأثيرها في الفكر الفلسفي . الأمر ذاته ينطبق على الفلسفة الإسلامية أي دراستها من داخل نسق

الفكر الإسلامي وسنري إلى حد كانت الأخطـــاء المنـــسوبة للفلـــسفة الإسلامية وهي في الحقيقة أخطاء يونانية خالصة .

وتسهيلاً لهذه الدراسة ، فنحن سنحاول أخذ بعض الأمثلة كنماذج على هذه الأخطاء مبتدئين بعرضها عند اليونان أولاً ثم فـــي الفكـــر الإسلامي . وذلك من خلال دراسة المصطلح والموضوع والمنهج .

1 ــ المصطلح :ــ

لا شك إن اليونان هم الدين وضعوا مصطلح " فلسفة " فيقال مثلاً أن فيثاغورت ، هو أول من اســـتخدام هـــذا المـــصطلح ، ويقـــصد به البحث عن طبيعة الأشـــياء وهنـــاك مـــن يقـــول بـــأن المـــؤرخ " هيرودوت " كل أول من استخدام المصطلح حيث ورد في إحـــدى رواياته ، بأنه قال عن " سولون " بأنه يجوب الأقطار متفلسفاً وهناك من يعتقد بأن " طاليس " هو أول من تفلسف .

يعني مصطلح " فلسفة " عند اليونان " محبة الحكمة وأن الفيلسوف ليس حكيماً إنما هو محب للحكمة .. لأنه يحاول الكشف عن الجوهر الكامن وراء المظهر .. أو كما حدده أرسطو البحث عن الوجود بمـــا وجود[1] وهو بحث يخلو من كل فائدة أو نفع مادي .. فقـــط التأمـــل والاستمتاع بهذا التأمل .

---

[1] يوسف كرم : " تاريخ الفلسفة اليونانية " دار القلم ــ بيروت 1982 . ص 170 .

هذا المصطلح خاص باليونان والمعجزة اليونانية ــ كما يتصور البعض ، لكي تتم القطعية الابستمولوجية ، بين بحث حكماء الشرق القديم وبين فلاسفة اليونان ، الذين أوجدوا هذا العلم من عدم . وكأن البحث عن جوهر الوجود والألوهية والحياة الاجتماعية والأخلاقية وعلاقات الأشياء ومصير الإنسان وحياته ، لم يكن بحثاً فلسفياً . يمكن أن يدخل في مجال البحث الفلسفي حتى وإن لم يطلق عليه مصطلح فلسفة ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن من جاء بعد اليونان وتناول موضوعات مخالفة تحت مصطلح الفلسفة يعتبر متابع لليونان وفلسفتهم ولم يقدم جديداً في هذا المجال .

هذه الآراء المتشابكة تختلط فيها المفاهيم إلى درجة مثيرة ، فكلما تحدثنا عن مصطلح يظهر لنا موضوع ، والعكس كذلك . كما يختلط الصادق بالزائف ففي هذه الآراء من الصدق والصحة بالقدر نفسه الذي تحمله من أخطاء ومغالطات . فإذا كان اليونان قد أبدعوا مصطلح الفلسفة ، وحددوا موضوعاتها ، بالطريقة التي تتوافق معهم فلا يعني ذلك إن شعوب الحضارات الأخرى لم تمارس هذه النوعية من التفكير بطريقتها الخاصة . فإذا كنا نتفهم أن يضع اليونان حداً فاصلاً بينهم وبين من سبقهم ، فمن غير المفهوم أن يطبق ذلك على حضارات لاحقة لهم .

من الناحية المنهجية ، فإن غايات وأهداف كل حضارة ، هي التي تفرض عليها انتقاء ودراسة موضوعات محددة بأساليب وطرق تتناسب مع الأفكار الأساسية في هذه الحضارة . فاليونان فعلوا ذلك وقد تميزوا عن العديد من الشعوب بمزايا خاصة بهم ، وظلت طريقتهم في التفكير علامة مميزة وبارزة تدل عليهم وحدهم دون غيرهم . ومن حق اليونان أن يصفوا من يتخذ طرائقهم في البحث والدراسة ، ويتناول موضوعاتهم بأنه متابع لهم ، وهذا جانب الصدق في الآراء التي تذهب إلى تأثير اليونان ، في من لاحقهم من مفكرين وفلاسفة .

أما الجانب الخاطئ ، فهو إنكار كل نوعية ونشاط يمكن أن يمارس بطريقة مختلفة عن اليونان ، في موضوعات مختلفة لموضوعاتهم . فالإنسان يستخدم عقلة ، بالطريقة نفسها التي استخدام بها اليونان عقولهم ، وبالجهد والطموحات نفسها ، الفارق هو إن هؤلاء لا يخضعون للتحديد اليوناني لمجال الفلسفة ، صحيح هم ليس فلاسفة ، بالمعني اليوناني إلا أن ذلك لا يحرمهم صفة التفلسف لأن الأهداف والأسس والوسائل مختلفة مما ينتج أنماطاً مختلفة من التفكير .

من الأخطاء أيضاً ، القول بأن اليونان ، مارسوا التفلسف بعيداً عن المنافع المادية والمعتقدات الدينية . وهو قول نكرره باستمرار ، دون محاولة التحقق منه لإن اليونان كانت لهم تطبيقات عملية كثيرة . مثل مدرسة فيثاغورت وأفكارها ذات الطابع السحري والسوفطائيين وطريقتهم ، بل إن اليونان ، كانوا أهل صناعة وفوق ذلك كانوا تجاراً وبحارة مقاتلين ولم تمنعهم تأملاتهم النظرية من تكوين مستعمرات على شواطئ الآخرين .. كما كان أكبر فلاسفتهم " أفلاطون " يسعى سعياً حثيثاً إلى تطبيق أفكاره في إقامة جمهوريته الفاضلة عدة مرات .

أما عن الجانب الديني فالحقيقة تقول ، بأن اليونان كانوا أهل دين أو متدينين على الأقل وهذا واضح من قراءة صحيفة الاتهام الموجهة ضد " سقراط " كما أنهم كانوا يستشيرون الآلهة في شؤون حياتهم اليومية ، وفي الحروب أيضاً من ذلك مثلاً : أن احتلالهم لمدينة شحات " قورينا " كان استجابة ورعة لأوامر الكهنة في معبد " دلفي " .

ما أود أن أقوله هو إن اليونان ، مثلهم مثل غيرهم من الشعوب . خاضعون لجميع الأحاسيس والمشاعر التي تنتاب الإنسان . من قوة وضعف وحقد ووهم وإخفاق ونجاح وحاولوا للتعبير عن كل ذلك في صورة جديدة ، تتوافق مع أسس ومبادئ روح حضارتهم

فاخترعوا مصطلح " الفلسفة " إلا أنهم لم يخترعوا التفكير الفلسفي. وطرحوا قضايا تخصهم وحدهم فكانت فلسفتهم المحددة مصطلحاً وموضوعاً والمختلفة عن ما سبقها .

ومن هنا تبرز عدة مواقف إزاء الفلسفة اليونانية :ـ

1 . أن يتخذ الباحث المصطلح اليوناني على ذات الموضوعات اليونانية أي انطباق الاسم على المسمي بالكيفية اليونانية .

2 . أن يتخذ المصطلح على مسمي أخر . وهذا موقف المستعير أو الموافق حيث ظهرت موضوعات جديدة لم تكن معروفة عند اليونان . والمثير للدهشة حقاً إن أصحاب هذا الموقف هم أكثر الذين تعرضوا للنقد والهجوم . سواء من جانب الفلسفة اليونانية أو من جانب الفكر الإسلامي لأنهم لم يلتزموا بالفلسفة اليونانية كما هي ولم يقفوا موقف الفكر الإسلامي بصورة كاملة .

3 . رفض المصطلح والموضوع اليونانيين فوضعت مصطلحات جديدة وموضوعات جديدة أو قديمة نظر إليها من زاوية جديدة . تعتمد أساساً على أصول غير يونانية .

تجدر الإشارة هنا إلى أن مفهوم الفلسفة عند اليونان ، لم يكن ثابتاً بصورة كاملة فقد تعرض للعديد من التغيرات والتقلبات ، فمفهوم الفلسفة عند الأقدمين ، أي ما قبل سقراط يختلف عن مفهومها عند

سقراط ، الذي يختلف عن مفهوم أفلاطون ، كذلك عند أرسطو وعند المدارس الفلسفية في الفترة الهيلينستية التي استقبلت عناصر جديدة غير يونانية .

هذا يعني على نحو واضح أن اليونان ، لم يمتلكوا تعريفاً محدداً وثابتاً لمفهوم الفلسفة ، والحقيقة أن هذا ليس ذنب اليونان بقدر ما يرجع إلى التطورات الفكرية والثقافة وحتى الجغرافية خصوصاً منذ أرسطو التي مروا بها حيث كان موضوع الدراسة يتغير من فترة إلى أخرى وفقاً لتغير موقف الإنسان وتطور معلوماته ونمو أفكاره وأتساع أفقه فكان يظهر في كل مرحلة فكرية في صورة مختلفة وعلى العكس من ذلك تماماً ، فقد احتفظ المصطلح " الفلسفة " بالثبات ، في كل هذه المراحل مما أعطي انطباعاً واهما بثبات المفهوم عند اليونان ، إلا أن ذلك كان مجرد وهم وتعميم خاطئ له . وهذا ما سنراه الآن .

2 ــ الموضوع :ــ

الموضوع الفلسفي عند سقراط يختلف عند كل من سبقه ، فيقولون بأن سقراط أنزل الفلسفة من السماء ووضعها على الأرض ــ وهو قول مشكوك فيه إلا أن ما يهمنا حقاً هو أن موضوعات سقراط اختلفت عن موضوعات الذين سبقوه ثم جاء أفلاطون وأعاد الفلسفة إلى السماء بطريقة جديدة . تم ما لبث أن أنزلها أرسطو مرة أخرى .

أما في الفترة الهيلينسنية فقد تغير مفهوم الفلسفة تغيراً كبيراً عما كان سائداً قبلها .

من المعتاد في كتب تاريخ الفلسفة ، أن يؤرخ بداية الفكر الفلسفي اليوناني " بطاليس " باعتباره أو فيلسوف عرفته البشرية على الإطلاق رغم أن الملاحظ أن أسلوبه وموضوعاته ، لا تختلف عن أساليب موضوعات حضارات الشرق القديم ، فكانت أفكاره يغلب عليها الطابع العملي كما حاول تطبيق أفكاره بالنمطية الشرقية ذاتها . لذلك لا يمكن النظر إليه باعتباره يونانيا خالصاً ، بل يجب أن ننظر إليه على أنه مرحلة الانتقال من العلم الشرقي إلى العلم اليوناني . الذي كان في بدايته ولم يتحدد مفهومه بعد ، وهذا واضح حتى في براهينه الرياضية التي تحمل تأثيرات الحضارات الشرقية كالمصرية والبابلية .

مما يؤيد ذلك ، أن الفلسفة بعده انتهجت مسارات جديدة مختلفة عنه . هذه المسارات الجديدة لم تتكون على نحو فجائي دفعة واحدة ، إنما بدأت في صورة تدريجية متصاعدة نحو صياغة أكثر اكتمالاً إلى أن وصلت إلى مرحلة سمحت لليونان بتحليل ما اكتسبوه تحليلاً دقيقاً ومستهدفاً خصوصاً وأنهم كانوا يسعون إلى وضع المبادئ العامة وتعليلها مع استخدام المنطق في التصنيف والتنسيق وإقامة البراهين التي تعتمد على الضرورة العقلية وحدها " أنها اللحظة حيث بدأ العلم

اليوناني وقد وعي ذاته ولم يعد يسعى فقط إلى كسب المعرفة بل إلى التنسيق بين المعطيات المكتسبة[1] .

الواقع أن الوعي بالموضوع الفلسفي عند اليوناني قد انعكس وبصورة حاسمة على تحديد المصطلح تحديداً مبرراً واستخدم في دراسة الموضوعات الخاصة بهم فالعقل اليوناني كان يري أن للعالم كمالاً ينتظر فقط من يشرحه[2] ولكي يكون الشرح مبرراً ومقنعاً اعتبروا الموضوعات المادية كائنات عقلية لها وجودها الموضوعي المستقل . ولم يعد البحث عن الضرورات المادية بل أصبح البحث على صعيد الضرورات العقلية ؛ من ذلك مثلاً أن أفلاطون أحال الموضوعات المادية الفيزيائية إلى موضوعات ميتافيزيقية ترتبط بعلاقات في عالم المثل وهي علاقات يمكن تفسيرها أو تعليلها عن طريق التأمل لا شيء سوي التأمل والاستماع بهذا التأمل .

3 ــ المنهج :ــ

طبع المنهج اليوناني الفلسفة بطابعة الخاص وهو الطابع الذي ظلت الفلسفة تعاني منه إلى وقت قريب نسبياً ، فقد كانت قبضة المنهج اليوناني قويه حول عنق الفلسفة والعلم إلى درجة أنه في أثناء

---

[1] رينيه تاتون " تاريخ العلوم العام ــ القديم والوسيط " ترجمة على مقلد المؤسسة الجامعية بيروت 1988 ص 102 .

[2] جميس جينز " الفيزياء والفلسفة " ترجمة جعفر رجب . دار المعرف مصر ، 1981 ، ص 27 .

سيادة التفكير اليوناني لم يكن في الامكان تصور الإفلات من هذه القبضة القوية وحتى أولئك المخالفون لم يكن يدر بخلدهم ، في الأغلب ، أنه بامكانهم ابستمولوجياً بناء أنساق معرفية يمكن أن تكون أفضل من الأنساق اليونانية أو على الأقل تساويها من حيث القيمة ، وحتى في الحالات التي حدث فيه خروج عن المنهج اليوناني لم تجد هذه المحاولات متابعات صحيحة وجادة ومستمرة .

ربما يرجع السبب إلى أن هذه المحاولات ، واجهت معارضات وانتقادات كثيرة جداً لأن نموذج المنهج اليوناني كان حاضراً وراسخاً في الأذهان ، فتوارت هذه المحاولات ، فيما برزت الأعمال التي تساير العقلية والمنهج اليوناني ، كذلك الأعمال التي تحاول التوافق مع اليونان في منهجهم النظري التأملي ، الذي لا يعبأ بحوادث الواقع العياني ، ولا يتهم بالاستخلاص التجريبي بل على العكس ، فهو يقوم على أساس من نبذ هذا الواقع .

لذلك كان أفضل ما أنجزته الحضارة اليونانية كان علوماً صورية محضة كالمنطق والرياضيات خصوصاً الهندسة ولعل النجاح الساحق الذي حققه اليونان في هذين المجالين ، ساعد في سيطرة الاعتقاد بأن بقية علومها على الدرجة نفسها من الإتقان فالأمم التي تعلمت المنطق والهندسة من اليونان لابد أن تكون قد تعلمت منهم بقية العلوم حتى

أولئك الذين انتقدوا المنطق والهندسة ذهبت محاولتهم إلى النسيان فقد كان الاعتقاد بصحتها صحة مطلقة .

لكن هذا لا يعدو عن كونه اعتقادا وليس هو بالرأي العلمي الحاسم المؤيد بالأدلة والبراهين ، فالاحترام الذي حظي به اليونان في هذين العلمين طغي على جميع نواحي القصور ، سواء في هذين العلمين أو في غيرهما من العلوم ، فقد نظر إلى الفلسفة اليونانية على أساس أنها علم العلوم اليونانية دون تدقيق أو إعمال فكر في التمييز بين الموضوع والمنهج في الفلسفة وبين بقية الموضوعات والمناهج .

هذه النتيجة البسيطة والواضحة ، ما كانت لتدرك في الأزمنة السابقة لأن النظرة اليونانية تري الفلسفة شاملة لكل العلوم أو كما يقال " أم العلوم " فكان من الصعب الإنفكاك من أسر هذه النظرة لسببين وهما : أولاً أن الفلسفة كانت تدرس المبادئ العامة ، التي تجمع كل العلوم الجزئية ، ورغم أن لكل علم أسسه موضوعه وأنساقه وقوانينه الخاصة ، إلا أنه يرتبط بنحو من الإنحاء مع بقية العلوم في المبادئ العامة التي هي موضوع الفلسفة . أما السبب الثاني فهو يرجع إلى مهمة الفيلسوف الذي كان يمارس تفكيره في البحث عن المبادئ العامة والقوانين الكلية . بالإضافة إلى تفكيره في العلوم الجزئية ، بمعني أن كل العلوم كانت تعتمد على جهد

الفيلسوف وفاعليته العقلية ومن هنا فان الموضوع والمنهج والذات تقبع جميعها تحت عباءة الفلسفة .

هذه النظرة استمرت فترات طويلة ، إلى أن استطاعت العلوم الاستقلال عن مجال الفلسفة وأساليبها ، وعن تأملات الفيلسوف وقد ساعدت هذه العلوم الجديدة بعد تقدمها في تقديم العون للفلسفة مما أتاح رؤية الموضوعات الفلسفية بمناهج جديدة إلى درجة أن تمكنت في ، نقد ذاتي رائع ــ من رؤية الأخطاء المميتة التي ارتكبتها الفلسفة اليونانية وسببت في عرقلة مسيرة تطور الإنسان ..

ورغم هذه الأخطاء استطاعت الفلسفة اليونانية من أن تعيش في أذهان العديد من أذكياء الناس في حضارات مختلفة عن اليونان في الثقافة وأنظمة التفكير ، الأمر الذي جعل الكثيرين يشيرون إلى هذه الأخطاء على أنها أخطاء هؤلاء الذين اخذوا الفلسفة عن اليونان ونسوا أو تناسوا بأنها كانت أخطاء يونانية أساساً .

وسنحاول الآن دراسة بعض القضايا والمشكلات ــ كأمثلة تناولتها الفلسفة الإسلامية ووقعت في الأخطاء اليونانية ذاتها . سواء كانت هذه الموضوعات يونانية صرفة أو إسلامية أوجدتها الحضارة الإسلامية ، ونظر إليها بطريقة يونانية مما أوقعها في مأزق كبري ،

دفع البعض إلـــى انتقـــاد الفلـــسفة الإســـلامية أو إنكـــار وجودهـــا دون التفكير في الأساس الأول لهذه الأخطاء .

ولكي يتسنى لنا دراسة بعض مشكلات الفلسفة الإســـلامية علينـــا تحديد اتجاهات وخصائص النظرة الإسلامية سواء فـــي الموضـــوع أو المنهج .

خصائص النظرة الإسلامية :ـــ

قدم الإسلام تصورات جديدة ومختلفة ، عن كل حضارة ســـابقة، في الألوهية والكون والطبيعة والكواكب والنجوم والسماوات والأرض وعن الإنسان ودوره وقيمته كما قدم تصوراته الدينيـــة والأخلاقيـــة والاجتماعية ، كل ذلك بمنظور جديد مما أدي إلى بروز موضوعات جديدة ، وحتى تلك القديمة نظر إليها برؤية جديدة تتفق مـــن النـــسق العام لأهداف وغايات الإسلام .

كل ذلك شكل الأسس والمبادئ العامة التي سارت عليها حـــضارة الإسلام فالكون والعالم والإنسان كلها تسير وفق المـــشيئة الإلهيـــة ، إلى غايات محددة ، أي أن هذه الأشياء ، ليـــست مخلوقـــة فحـــسب بل أن هناك هدفاً من خلقها وليست مخلوقة عبثاً .

فأول الأسس العامة التي تكمن خلف بنيان الحـــضارة الإســـلامية هو أن الإسلام لم يكن أبداً اسكاتولوجياً **ESCHATOIOGY** إنما يقر

بالواقع العياني وان الأحداث المتكاثرة في هذا العالم لا تقع بصورة عشوائية أو عبثية إنما تربطها الأهداف والغايات سواء كانت دينية أو أخلاقية أو علمية .

ومن الأسس العامة للنظرة الإسلامية هو عدم التفريق بين الواقع والعقل وبين النظر والعمل . ممارسة الحياة اليومية ، بما فيها من عبادات ، الدنيا والأخر ، الجسم والنفس ، بدون فاصل ، فالإنسان لا يكون جسدا فقط ولا روحا فقط إنما هما شيء واحد متحد في وحدة لا تتمايز أو تتحدد بحدود .

كذلك من أساسيات النظرة الإسلامية لانهائية الزمان والمكان ، فإذا كانت الأرض محددة والحياة الدنيا محصورة ما بين ولادة وموت ، فإن هذا لا يعني أننا بصدد عوالم مختلفة ، إنما ذلك مجرد مرحلة من مراحل الزمان اللانهائي في بدايته ولا نهايته ، فالأرض المحدودة التي توجد في مكان غير محدد فهي جزء كون من لا نهائي في امتداده ، فإذا كانت الدنيا قد خلقت في زمان إلا أن قبل زمان الخلق كان زمان لا يعرف بدايته ولا يعرف نهائية في الأخرة إلا الله وهذا يصدق أيضاً على المكان .

كما ان الإرادة كمبدأ عام ، تعتبر من خصائص النظرة الإسلامية سواء كانت إرادة إلهية أو إنسانية ، فالله مريد وإرادته مطلقة ، والإنسان يريد ما اختاره من أفعال وإن كان لا يخلق هذه الأفعال،

بإرادته يمكن أن يعرف الأشياء ويحددها ويكتشف قوانينها والعلاقات التي تربطها سواء من حيث هي في ذاتها أو مع سواها ، واختياره إرادي لا إجبار فيه لهذا كان منطقياً أن يتحمل مسئولية وتبعات اختياراته .

ومن الأسس العامة أيضاً ، النظر إلى الكون والعالم والإنسان على أنها كثرة مرتبطة بوحدة غير محددة ، فإذا كان من الشائع اعتبار الكثرة هي مجموع الوحدات المؤلفة لها في مفهوم بعض الناس إلا أن الكثرة هنا ليست كذلك ، فهي حالة من حالات الوحدة فهي لا تعد الوحدات وإن كانت هي في ذاتها وحدة من نوع ما ، أو حالة أو صفة تصف الأشياء . هذا المفهوم الذي لم ينتبه إليه ، سمح بتعداد الأشياء وفي الوقت ذاته هي محكومة بوحدتها ككثرة التي هي في العرف الرياضي حالة من حالات العدد .

هذه بعض الأسس والمبادئ التي تشكل أساس النظرة الإسلامية المتميزة ولما كانت هذه الأسس والمبادئ تخالف أسس ومبادئ النظرة اليونانية ، فأننا سنحاول رؤية إلى أي حد كان تأثير الفلسفة اليونانية في الفكر الإسلامي ، أو بمعني أوضح سنحاول تبيان المعالم والاتجاهات الفلسفية في الحضارة الإسلامية ، خصوصاً في تحديد المقصود بالمصطلح لأنه في هذا التحديد سنعرف هل المقصود هو البحث عن الأفكار والنظريات اليونانية داخل الفكر الإسلامي

أو هو بحث عن استخدامات هذا المصطلح (الفلسفة) في قضايا إسلامية وما هو المقصود إذن ـ بمصطلح الفلسفة الإسلامية ولماذا أطلق عليها هذا الأسم هل هي متابعة لليونان ؟ أم هي شيء يختلف عن كل ذلك ؟ .. وما هو الميزان الذي نضع فيه الفلسفة الإسلامية هل هو يوناني ؟ أم إسلامي ؟ هل الفلسفة هي كل الفكر الإسلامي أو أن الفكر الإسلامي هو فلسفة في ذاته ؟ .

أن الإجابة عن كل الأسئلة السابقة ، لا تعطينا فقط مفهوما واضحاً عن الفلسفة الإسلامية بل نستطيع من خلالها رؤية وتحديد الأخطاء التي وقعت فيها بحيث نتمكن من الحكم أن كانت هذه أخطاء الفلسفة الإسلامية ، أو هي أخطاء يونانية لم يستطع الفلاسفة العرب تجنب الوقوع فيها . سيكون ذلك ابتدأ بعرض . اتجاهات الفكر الإسلامي .

انعكس التنوع المدهش في مصادر المعرفة ، على عقلية الإنسان المسلم ، سواء من حيث المادة أو الآليات والتقنيات المستخدمة في الوصول إلى الحقائق ، وإن كان هذا لا يعني أن كل رافد استقي منه علماء الإسلام يمثل جزء منعزلا من نسيج الحضارة الإسلامية أو أن هذا الجزء ظل يتحفظ بخصوصيته الأصلية ، فهذه نتيجة خاطئة من مقدمات خاطئة تقول بأن النهضة العلمية التي وصل إليها المسلمون لم تكن بدوافع وامكانيات إسلامية ، أي أن النهضة العلمية والفكرية ما كانت لتقوم لولا الترجمة !!.

والحقيقة أن الترجمة ساعدت المسلمين ، في نواح عديدة فهي وفرت لهم مادة علمية غنية ، ساعدتهم في معالجة بعض علومهم الخاصة ، كما كان لها فضل اتساع اللغة العربية في مجال العلم إلى درجة إنها كونت لنفسها مصطلحات من التعابير المجردة[1] وهذا صحيح إلا أنه ليس الحقيقة كلها ، فالحقيقة أن الترجمة لم تبدأ كتيار ثقافي متدفق إلا بعد أن اشتد عود الإسلام ، وتمت صياغة الهوية الإسلامية بشكل متكامل ، وهذا ما يفسر لنا بأن الترجمة لم تبدأ إلا بعد ثلاثة قرون من ظهور الإسلام .

فالترجمة عند المسلمين لم تكن مجرد نقل معارف ومعلومات في صورة ألفاظ وجمل عربية فقط ، إنما هي في الأساس استيعاب ومراجعة ومقارنة وتحليل وهي بهذا المعني لا يمكن أن تتم دون وجود معيار أو نموذج يمكن أن تتم المراجعة والمقارنة والتحليل من خلاله ، ولم ذلك المعيار أو النموذج يوناني أو شرقي لأن التراث الشرقي والتراث اليوناني خضعا أيضاً عند المسلمين للتحليل والمراجعة والمقارنة .

لذلك قلنا أن الترجمة لم تتم إلا بعد تكونت الهوية الإسلامية ، وهذا يفسر لنا في عمليات الترجمة أن المسلمين أخذوا ما يناسبهم وتركوا ما يتنافى مع حضارتهم وهذا الأمر جعل البعض ينتقد

---

[1] تاتون " تاريخ العلوم العام " ص 453

هذا الموقف ، واعتبره تشويها للتراث القديم ، لكن هذا ليس انتقـادا بل هو صياح وصراخ كما أنه لم يستطع أن يدرك بـأن المـسلمين حينما ترجموا التراث السابق أخذوا بالضبط ما هم في حاجة إليـه ، وما يناسبهم وتركوا الباقي الذي لا يتماشى معهم أو الـذي لا يـشكل لديهم قضية ، كما أن الذي أخذوه أحالوه إلى صور جديدة لا علاقـة له بصورته القديمة لذلك فالحقائق التي أخذت وأخرجت فـي صـور جديدة أصبحت حقائق إسلامية وإن كان مصدرها الأول غير إسلامي فالصور القديمة تم استيعابها ومراجعتهـا وتحليهـا وفـق المعيـار الإسلامي الذي كان قد اكتملت هويته وهذا الموقف لا يخالف العلم .

إلا أنه حدث بعد تطور العلم وتناميه أن وجدت اتجاهات رجعـت إلى الأصول القديمة وسارت على نهجها مصطلحاً وموضوعاً ورغم أنها عاشت في البيئة الإسلامية ، إلا أنها كانت غريبة عن هذه البيئـة ولم تستطيع أن تتعايش معها .

وفق هذا التحليل سـنحاول استكـشاف أفـق الفكـر الفلـسفي في الإسلام ، وبغض النظر عن الاختلافات الجزئية فإنه يمكن تحديده في ثلاثة اتجاهات رئيسية .

أولاً :ــ الفلاسفة

وهم الذين تناولوا المصطلح والموضوع الفلسفي اليوناني ، إلا أنهم لم يستطيعوا لأسباب كثيرة إنكار المصطلح والموضوع الإسلامي فغلب عليهم الطابع التوفيقي بين الفلسفة اليونانية ومبادئ الدين الإسلامي ، لذلك لم يتمكنوا من الوصول مع أي رافد إلى مداه الأقصى ، ولم يستطيعوا إقناع أي جانب بل لقد واجهوا الانتقادات والاتهامات من كل جانب .

أ . فمن منظور الفلسفة اليونانية : نظر إليهم على أنهم حرفوا الفلسفة اليونانية إلى درجة التشوية ، وأنهم لم يستطيعوا استيعاب المفهوم اليوناني على نحو دقيق والغريب أن هذه الاتهامات انسحبت على الفكر الإسلامي كله .

ب . من منظور الفكر الإسلامي : نظر إلى الفلاسفة العرب باعتبارهم يمثلون الفلسفة اليونانية وقضاياها ومشكلاتها ، التي تختلف عن القضايا والمشكلات الإسلامية فهؤلاء الفلاسفة يمثلون تيارا يونانياً داخل البيئة الثقافية الإسلامية لهذا أطلق عليهم مصطلح " المشاءون " وكنتيجة سلبية لهذا الموقف أصبح ينظر بارتياب وشك إلى كل من يدرس الفلسفة اليونانية أو حتى علوم الأوائل .

ثانياً :ــ المتكلمون

ويمثل هذا الاتجاه أصحاب الفرق الكلامية ، بـــاختلاف طرقهـــا ونزعاتها ويعتقد أصحاب هذا الاتجاه ، بأنهم يمثلون الفكر الإســـلامي حق تمثيل ، وذلك عن طريق الدفاع عن الشريعة الإســـلامية بأدلـــة عقلية ، وهذا الاتجاه وإن رفض الموضوعات اليونانية لا يرى مانعا دينيا أو فكريا . من الاستخدام المنهجي لبعض آليات اليونان وبالذات المنطق في البرهنة والتدليل وإقناع الخصوم بشكل واضح وبين فـــي دفاعهم عن الشريعة .

أنتقد هذا الاتجاه باعتبار ما يتناوله من موضوعات لا يمت بصلة إلى موضوعات الفلسفة وقد انسحب هذا الانتقاد على الفكر الإسلامي بشكل عام والقول بأن المسلمين لم يعرفوا الفلسفة .

ثالثاً :ــ الفكر الصوفي

ويمثل هذا الاتجاه التيار الوجداني الباحث عن الحقيقة عن طريق مناهج حدسية ذوقية لا تعتمد على استدلال أو برهان ، إنما الاعتمـــاد على اليقين الذي يتلقاه المتلقي ، الصاعد إلى الحقيقة الأسمى دونمـــا حاجة إلى معلمين أو ملقنين بل يأتي حدســـياً أي بمعرفـــة إلهاميـــة مباشرة ، تقذف في قلب الصوفي فيحصل له اليقين الذي يسعى إليه .

هذا الاتجاه ، لا يرفض فقط المصطلح والموضوع اليوناني ، بل يرفض كل المناهج العقلية جملة سواء كانت يونانية ، أو غير يونانية لأن الوصول إلى اليقين لا يكون البتة عن طريق العقل أو بالأدلة والبراهين العقلية ، الأمر الذي جعل البعض يقول بان المسلمين غير قادرين على التفكير العقلي المجرد .

هذه صورة تخطيطية عامة ، لمعالم الفكر الإسلامي في اتجاهاته المختلفة ، وأوضحنا بأن الاتجاه الذي اصطلح على تسميته بالفلسفة الإسلامية ، ويقصد به الاتجاه المتابع للفلسفة اليونانية ، لا يمثل إلا اتجاها من اتجاهات ، وسواء اتفقنا على ان هناك فلسفة إسلامية أصلية في بقية الاتجاهات أم لم نتفق فأن غرضنا من هذه الدراسة هو بيان الأخطاء اليونانية التي تكررت عند الفلاسفة المسلمين وحسبت عليهم ، ولذلك ستكون دراستنا منصبة على هذا الاتجاه المتابع لليونان ، وهو ما عرف " بالمدرسة المشائية " في الإسلام وذلك في الأفكار الآتية .

1 . **المصطلح :ـ** على الرغم أن أرسطو لاحق لأفلاطون إلا أن تعريفه للفلسفة بدأ وكأنه سابق عليه ، حيث قدم عدة تعريفات كانت أكثر إكتمالاً وإحكاماً ، أما إذا كنا من هواة التسلسل التاريخي نستطيع أن نقول أن تعريف الفلسفة مر بعدة مراحل من التطور، إلى أن وصل صياغته النهائية عند أرسطو ، وهي تنص بأن الفلسفة

هي دراسة الوجود وبما هو وجود وهو تعريف غامض بدرجة مربكة ولا يفرق في الأساس بين الوجود والماهية ، وقد حاول إبن رشد أن يجعل هذا التعريف أكثر وضوحاً فقال " هو النظر في الهوية على كنهها والنظر في الأشياء التي للهوية "[1] إلا أن الأمر أزداد تعقيداً ويدرك إبن رشد ذلك فيعيد شرح التعريف بقوله " هاهنا علم ينظر في الموجود بما هو موجود وفي الأعراض الذاتية للموجود بما هو موجود[2] يقصد بهذه التعريفات أن الفلسفة هي دراسة المبادئ العامة للوجود ودراسة العلل لهذا الوجود ومحمولاته الجوهرية وقد حدد أرسطو في " ما بعد الطبيعة " ثلاثة مباحث كبري للفلسفة وهي :ـــ

1 . مبحث العلل الأولى إطلاقاً .

2 . مبحث الأمور العامة للوجود أي دراسة الوجود بما هو وجود

3 . مبحث الموجود الأول والعلة الأولى .

أما العلوم التي تدرسها فهي الفلسفة الأولى والحكمة والعلم الإلهي ، وتختلف هذه العلوم من حيث الدرجة ، ولكنها في التحليل النهائي تشترك في أنها تبحث عن المبادئ العامة اللا محسوسة وعن الوجود العام أي الوجود المحض .

---

[1] ابن رشد " تفسير ما بعد لطبيعة " ، دار الشروق ، بيروت 1967 ، ص 2 .

[2] المصدر السابق الصفحة نفسها .

كان موقف الفلاسفة المسلمين " المدرسة المشائية " يشوبه الكثير عن التوتر ما بين تعريفات أرسطو وبين مبادئ وحقائق ، الإسلام فلم يكن بمقدورهم التخلي عن أرسطو باعتباره مثالاً للعلم ، كما لم يستطيعوا تجاهل مبادئ الإسلام فحاولوا التوفيق بينهما إلا أن محاولتهم وصفت بأنها كانت تلفيقية ، فلا هي يونانية ولا هي إسلامية ، إنما هي مزيج غريب من الأفكار حاولوا الوصول إليه بأفضل ما يمكن نتيجة للتوتر الذي وقعوا فيه ، وهذا ليس تحليلاً نفسياً للفلاسفة المسلمين ، بقدر ما هو محاولة لفهم أسس تعريفاتهم للفلسفة .

عرفها " الكندي " بأنها علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان[1] ويعرفها الفارابي فيقول إن الفلسفة حدها وماهيتها إنها العلم بالموجودات بما هي موجودة[2] أما " إبن سينا " فيعرفها على أنها العلم بأول الأمور في الوجود وهي العلة الأولى وأول الأمور على العموم وهو على الوجود والوحدة وهو أيضاً الحكمة التي هي أفضل معلوم فإنها أفضل علم بأفضل معلوم الله وبالأسباب من بعده وهو أيضاً معرفة الأسباب القصوى للكل وهو أيضاً المعرفة بالله[3] .

---

[1] الكندي رسائل الكندي للفلسفة تحقيق محمد عبدالهادي ابوريدة . دار الفكر العربي القاهرة ، 1950 ، ص 37 .

[2] مصطفي عبدالرزاق " تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية مكتبة النهضة المصرية ، ص 49 .

[3] أبن سينا " منطق المشرقين " تقديم شكري النجار ، دار الحداثة بيروت ، 1980 ، ص 6 ــ 8 .

من هذه التعريفات ، نستطيع أن نري إلى حد كان توتر الفلاسفة المسلمين فهم قد أخذوا بشكل أو ظاهر التعريف دون مدلولة أو موضوعه فقد أصبح المدلول إسلامياً فالكندي لم يستطع القول ، بأن الفلسفة هي العلم بحقائق الأشياء بصفة مطلقة ، إنما حددها بقدر طاقة الإنسان ، لأن حقائق الأشياء لا يعلمها إلا الله ، كما أن ابن سبنا حينما عرفها بأنها العلم بأفضل معلوم ومن الأسباب من بعده ، لم يستطع أن يساير العقلية اليونانية في البحث عن أسباب العلة الأولى أو المبدأ الأول ، إنما هي علم بالمبدأ الأول وبالأسباب من بعده .

هذا التغيير في مدلول المصطلح أو موضوعه جعل البعض ينتقد هذه التعريفات على أنها حرفت المصطلح اليوناني وفي المقابل قال البعض أن هذه التعريفات سمحت بظهور المعني الديني للفلسفة[1] .

هنا نجد الخطأ اليوناني الذي حسب على الفلاسفة المسلمين المتابعين لليونان فالله عند اليونان حتى وإن كان علة أولى ومبدأ أول لجميع الموجودات ، إلا أن وجوده لا يختلف عن بقية الموجودات وهذا يخالف التصور الإسلامي لله ، لذلك لم يستطع الفلاسفة المسلمين إغماض أعينهم عن التصورات الإسلامية عن الله والوجود وغايته .

---

[1] أنظر ، يحيى هويدي " مقدمة الفلسفة العامة ، دار النهضة العربية ، القاهرة 1972 ص 63 .

فغاية الفلسفة لم تعد العلم بحقائق الأشياء ، لا لشيء إلا لمجـــرد تأملها والاستمتاع بهذا التأمل ، فقد رفض فلاسفة الإسلام هذه الغايـــة التأملية السلبية للفلسفة ، فقد أصبحت الغاية من علم الأشياء بحقائقهـــا علم الربوبية وعلم الوحدانية وعلم الفضيلة وجملة كـــل علـــم نـــافع والسبيل إليه والبعد عن كل ضار والاحتراس منه[1] أي تغيرت مهمة الفلسفة وأصبحت مرتبطة بالإنسان وجهده ، أي الإنـــسان كفاعليـــة ونشاط وليس الوقوف سلبيا إزاء الكون وظـــواهره بـــل أن مـــصير الإنسان مرتبط بمقدار جهده وكيفيته واتجاهه ، وهذا معنـــى قـــرره الدين ، أي أن الفلسفة محكومة بحياة الإنسان وإمكانياته وأعماله .

إذن حاول الفلاسفة المسلمون تفادي الخطأ اليوناني في المصطلح ومدلوله عن طريق تعميق وتوسيع وتعديل هذا المصطلح وغاياتـــه ، فالفلسفة هي الحصول على كل علم نافع والسبيل إليـــه ، والابتعـــاد عن كل ضار والاحتراس منه ، فهي لا تقف منعزلة عن أي نـــشاط عقلي أخر ، بل هي تقف على أرضية علمية وأخلاقية كما أن غاياتها إسعاد الناس وتقديم المنفعة لهم ، أي فيها فائدة عامة وليست خاصـــة بالتأمل وحده ، أي ليست معرفة تطلب لذاتها أي هي ليـــست ســـلبية ساكنة كما في المصطلح اليوناني .

---

[1] الكندي " وسائل الكندي " ، ص 104 .

رغم تمسك الفلاسفة المسلمين بالمنهج اليوناني في البحث فأنهم ــ هنا لم يستطيعوا الذهاب أبعد من ذلك ، مما دعي إلى وصف أعمالهم بالتشويه والتحريف للمصطلح اليوناني ، وهم في ذلك قد أدركوا إلى أي حد كان قصور وعقم النظرة اليونانية اتجاه الفلسفة ، وحاولوا إعطاء فاعلية ونشاط مع تعديل في موضوعات الدراسة ، وهو ما حدث بالضبط في العصور الحديثة ، التي ثارت على فلسفة اليونان السلبية عندما تبينت خطأ الفلسفة اليونانية ، إلا أن هذا الخطأ حمل أيضاً على للفلسفة الإسلامية ، ونحن نعرف الآن بأن المسلمين لم يأخذوا في هذه النقطة من اليوناني سوي المنهج ، وحاولوا تعديل موضوع الدراسة ، نظراً لوجودهم في بيئة إسلامية لها تصورات مختلفة عن تصورات اليونان . إلا أنهم تأثروا باليونان إلى حد بعيد فإذا كانوا قد وقعوا في خطأ ، فإن الخطأ يرجع إلى اليونان في تصورهم عن الفلسفة وموضوعاتها وغاياتها .

2 . **المنهج :ــ** اعتمدت الفلسفة التأملية اليونانية في بنائها وتركيبها وتسلسلها على منطق أرسطو ، وهو منطق صوري يعتمد على القياس كأسلوب في تقرير الحقائق المختلفة ، خصوصاً وأن اليونان كانوا يرون ــ في الأغلب الأعم ــ أن الحجة البرهانية القياسية مقنعة لمجرد النظر إليها ، فهي لا تحتاج إلى إمعان تفكير

لأنها تستند في الأساس على مبادئ وبديهيات ، أو حالات أطلق عليها اسم مهيب مجلجل وهو " قوانين الفكر الأساسية " دعمت هذه القوانين توجهات الفلسفة اليونانية ومنحتها قوة طاغية ومغرية لبساطتها ووضوحها النظري .

هذا الحكم وهذه النتيجة تصدق بالنسبة للفكر اليوناني ، فمن المعروف أن منطق أرسطو يعرف بأنه نحو اللغة اليونانية ، أما في اللغات الأخرى المختلفة في تركيبها وقواعدها فإن الصدق لا يكون بديهياً ولا هو صحيح صحة مطلقة ؛ فمثلاً في أبسط تركيبات هذا المنطق إن الجملة أو القضية تتألف من موضوع ومحمول ورابطة تربط المحمول بالموضوع وهي ظاهرة في الجملة أو القضية المنطقية غير مضمرة فاذا كان الموضوع موجوداً ويمكن التحقق منه وكذلك المحمول فإن الرابطة لا وجود لها إنما هي إضافة يضيفها العقل في تصوره للعلاقة بين الموضوع المحمول ، فالقول " سقراط فيلسوف " فإن الرابطة لا تظهر في اللغة العربية .

أما في اليونانية ، فإن ترجمتها تكون كالاتي : أما أن نقول " سقراط يكون فليسوفاً " أو " سقراط هو فيلسوف " وعلى الرغم من الفرق المنطقي الهائل بين الفعل يكون والاسم هو إلا أن ذلك لم يلاحظ ، فالقضية السابقة لا تبين لنا أن كان سقراط يمتلك خاصية التفلسف أو أن سقراط ينتمي إلى فئة الفلاسفة ، أقصد أن هذا المنطق

ونظراً لأسباب خاصة باللغة اليونانية لا يبين ولا يميز بين علاقة الهوية وعلاقة الانتماء ، فغير واضح هنا إن كان المحمول هو تحصيل حاصل للموضوع أو هو إضافة زائدة عليه .

هذه التحديدات المنطقية لا تكون واضحة إلا لمهني في المنطق ، وإن كانت في الأساس مبدئية وأولية ، لأنها تستند إلى نظرة يونانية أساسية ، وهي النظر إلى الوجود على أنه محمول مثل أي صفة أخرى " كالسريع " و " النشيط " أي أن المحمول صفة تضاف إلى الموضوع ، هذا الخطأ اليوناني والذي وقع فيه الفلاسفة المسلمون كما وقع فيه العديد من فلاسفة العصر الحديث مثلما وقع فيه " ديكارت " حينما فرق بين الوجود والماهية وذلك حينما قال عن الوجود أنه الشيء من حيث هو موجود خارج الذهن[1] أما الماهية ، فهي الشيء على النحو ما يكون الذهن[2] وأن الوجود صفة تحمل على الموضوع .

انعكس البناء المنطقي ، الذي عرضه أرسطو ، كأفضل مثال على العقلية اليونانية وانعكس على قضايا الفكر وكذلك على قضايا الواقع دون تفرقة ، مما سبب في الكثير من الحالات ، إلى جمود الفكر وتشويه الواقع ، ففي أدلة إثبات الوجود لم تكن هناك تفرقة بين

---

[1] ديكارت " مبادئ الفلسفة " ترجمة عثمان أمين " دار النهضة المصرية القاهرة ، 1960 ص 104 .

[2] المصدر السابق الصفحة نفسها .

الوجود التصوري والوجود الواقعي . مما أحال قضايا الواقع الفيزيائي إلى قضايا شكلية فارغة من محتواها ، لدرجة أن الاحتكام لا يكون بالرجوع إلى الوقائع العيانية المفترضة بقدر ما يرجع إلى المنطق الأرسطي وقوانينه ، وكذلك العكس في القضايا التصورية حيث أعطيت مادة واقعية لا تفترضها هذه النوعية من القضايا .

تابع الفلاسفة المسلمون فكرة التفرقة اليونانية ، ورغم النقد العنيف الذي انتقدت به هذه الأفكار في الفكر الإسلامي ، إلا أن المشائيين المسلمين ، لم يتخلوا تماماً عن الأساس اليوناني ، فالخطأ هنا نابع من المصدر الأصلي لهذه التفرقة .

والحقيقة أن اليونان حينما فرقوا بين الوجودين كانوا تحت تأثير فكرة أخرى أعم وهي فكرة الثنائية في التفكير التي كانت واضحة عندهم .

1 . **الثنائية :ـ** قسم اليونان الكون والعالم والفكر وكل الأشياء إلى قسمين : إذ كانوا مغرمين بالثنائيات وراو الأشياء رؤية ثنائية ، وكان تأثير هذه الفكرة كبيرا سواء على مستوي الحياة اليومية أو على مستوى العلم والفلسفة ، ففي مجال الفلسفة ميزوا تمييزا حادا وقاطعاً بين الفكر والمادة ، الظاهر والباطن ، عالم المثل وعالم الحس ، الصورة والهيولي ، القوة والفعل ، وكل طرف هو نقيض الأخر ، مما يعني وجود عالمين منفصلين لا تربطهما صلة .

رغم إن الإسلام ، قدم العديد من المبـــادئ والحقـــائق الأوليـــة ، التي تعارض هذه النظرة إلا أن الفلاسفة المسلمين ، لـــم يـــستطيعوا الإنفكاك بصورة كاملة عن التصور اليوناني ، ففي الإسلام ليس ثمة تعارض أو حدود فاصلة بين القضايا والأفكار ، فإذا جـــاءت بعـــض الأقوال التي يبدو من ظاهرها أنها تؤيد هـــذه الوجهـــة مـــن النظـــر إلا أن الأمر بخلاف ذلك ، فإذا كان ثمة فصل فهو فصل في الصورة اللغوية وهي اصطلاحية أما الدلالة أو المضمون الحقيقي فهو غيـــر منفصل ، فإذا جاءت لفظة الدنيا ولفظة الآخرة فلا يعني أننا بـــصدد عالمين ، بل أن المفهوم الإسلامي يعتبر الدنيا مقدمة للآخرة ، فهمـــا معاً يكملان بعضهما في شكل متصل كمدخل البيت للبيـــت ، لـــذلك فإذا عمل الإنسان في الدنيا يكافئ به في الآخرة وإن الـــدنيا تختلـــف عن الآخرة إلا أنهما في التحليل النهائي شيء واحد ، كذلك الإيمـــان لا ينفصل عن العمل بل يتعزز به ، والعقل لا ينفصل عن الحـــس ، إنما هو جزء مكمل ولا يستطيع الإنسان بما هو كـــذلك ، أن يعـــيش في طرف دون أخر أي أن الإنسان هو كل ذلك .

أخذت المدرسة المشائية الإسلامية بهذه الثنائية ، لكنها لم تـــستطع أن تسير بها إلى النهائية في ظل وجـــود تـــصور إســـلامي ناضـــج وواضح ، لذلك اضطر فلاسفة هذه المدرسة إلـــى نـــشدان العـــون من الفكر الإسلامي الزاخر ، فكانت محاولاتهم فـــي التوفيـــق بـــين

التصورين ، إلا أن النتيجة كانت محبطة في الجانبين ، فلا هم أخذوا بالتصور اليوناني ولا بالتصور الإسلامي ، وقد اعتقدوا بأنهم يقدمون حلا وسطاً يزيل التناقضات ويجمع الاتفاقيات ، إلا أن الحل الوسط كان موقفاً ثالثاً مغايراً للأثيين معا ، لذلك فقد وصفوا من جانب الفلسفة اليونانية بالتشويه والتحريف ووصفوا من جانب المسلمين بالكفر .

أضرت هذه الثنائيات ليس فقط بالفلسفة اليونانية أو الإسلامية ، بل الفكر الفلسفي العام وكانت عقبة كأداء في سبيل تقدم وتطور الإنسان ، وكانت قيدا قاسياً على العقل وليس أدل على ذلك من أن العقل حينما تحرر من أسار هذه الأفكار ، تطور وتقدم بخطوات سريعة وحقق ما حققه الآن بعيداً عن هذه القيود الفكرية والأفكار الخاطئة ، التي جاءت منذ بدايات الفلسفة اليونانية وأثرت فيمن جاء بعدها ، إلى العصور الحديثة ، بما فيها الفلسفة الإسلامية ، التي لا تتحمل وحدها تبعات هذه الأخطاء اليونانية .

2 . **مفهوم الألوهية :ـ** لم يكن لدى اليونان تصور واضح لمفهوم الألوهية ذلك لان عندهم هو جزء من الطبيعة وغير مفصول عنها ، فإذا قالوا بأنه مبدأ أول أو علة أولى لجميع الموجودات ، فهذا المبدأ وهذه العلة لا تختلف في طبيعتها ولا ماهيتها عن بقية الموجودات وحتى أفلاطون الذي تميز عن أقرانه اليونان في هذا المجال نجده

ينظر إلى مفهوم الألوهية من خلال المثل ، فهي خالدة وثابتة ومفارقة وفوق ذلك مكتفية بذاتها ، وهذا الاكتفاء بالذات يعني في صورة واضحة أن المثل لا فاعلية لها.

وأرسطو يري بأن الله أزلي أبدي ، وغير منقسم ، وهو عقل أبدا ذو ، وجود بالفعل ، يتأمل إلى ما لا نهاية موضوعية ، وهو هي خالد ثابت ، وعنده أيضاً أن العالم أزلي ، والهيولى أزلية ، والكون أزلي ، فهي جميعاً أزلية ، فلا معنى أن يسبق أزلي أخر ، ولا يستطيع أزلي خلق أزلي أخر .

استخدام فلاسفة الإسلام المصطلحات والتحديدات اليونانية ، وحاولوا إدخالها مع المفاهيم الإسلامية ، إلا أن المفهوم الإسلامي عن الله لا يقارن بالمفهوم اليوناني الذي بدأ قاصرا وفجا ، فالله عند المسلمين لم يعد هو الخير المحض فقط ولا هو صورة أو العقل المجرد لا أكثر ولا أقل ، إنما هو قبل وبعد كل شيء " ليس كمثله شيء " .

إذن كان القول بالثابت الخالد الأزلي المكتفي بذاته ، هو الذي ساد في الفكر القديم ، بل كان عنواناً بارزاً لأحقاب طويلة من التفكير، ومن تم أصبحت مهمة الفلسفة هي البحث عن المطلق الثابت الخالد ، باعتباره الحقيقة الوحيدة ، وهو فقط موضوع المعرفة الصحيحة ، ولما كان عالم الواقع الحسي موجوداً ولا يمكن إنكاره ، كان لابد

من إيجاد علاقة بين هذين العالمين ، فكانت نظرية الفيض ، وكان هذا في الحقيقة خطأ أخر ترتكبه الفلسفة اليونانية وتابعها ذلك في الفلاسفة المسلمون .

3 . **نظرية الفيض :ـ** وتعرف أيضاً بنظرية الصدور ، وقد قال بها أفلوطين : حيث تحول عنده مثال الخبر الأفلاطونى ، إلى الواحد المطلق اللا متناهي ، المكتفي بذاته ، ولما كان هذا الواحد خاليا من الغيرة ، فإن الوجود يفيض منه على العالم ، فهو المنبع الذي تفيض منه الأشياء كلها ، ولانه مكتفي بذاته فهو لا يفتقر إلى شيء ، ولا تحركه رغبة نحو شيء لكن النور يشع منه ، فيفيض على من حوله دون ما نقض منه إنما بفضل كرمه وجود خيره هذا الفيض هو كضياء الشمس من الشمس ، ولم يحدث في زمان أو بإرادة إرادته . وهو فيض مستمر غير منقطع سواء من جهة الواحد أو من جهة الموجودات ، لذلك فإن الفيض حتمي وغير إرادي .

أخذ الفلاسفة المسلمون بهذه النظرية ، لتفسير وجود العالم وقدمه ، باستثناء " الكندي " الذي رأي بأن العالم مخلوق ، خلقه الله تعالي بإرادته من العدم ، دون سابق مثال أو بتعبير الكندي نفسه " تأسيس الأيسات عن ليس[1] " أي إيجاد الموجودات من عدم وهو

---

[1] الكندي رسائل الكندي ، ص 83 .

الذي يتفق مع رأي الإسلام من أن العالم مخلوق الله ، خلقه بإرادته في الوقت الذي شاء والمكان الذي شاء .

إذا كان افلوطين قد فسر وجود العالم على أنه فيض حتمي من الواحد المطلق ، فإنه في الحقيقة كان يستند إلى تراث يسير في هذا الاتجاه ، ورغم ما في هذا التراث وهذا الإسناد من أخطأ يمكن مناقشتها فإن القول بهذه النظرية في الفكر الإسلامي ، ليس هناك ما يبرره ، فالدين قدم الأساس الايماني والعقلي لفكرة ومفهوم الخلق ، الإرادة المشيئة الإلهية ، بل أن ما قدمه الدين الإسلامي من تصورات لا يمكن مقارنتها بأفكار الفلسفة اليونانية القاصرة ، فالقول بالفيض يعتبر تراجعاً ونكوسا للعقل بغير مبرر .

أثارت هذه النظرية إلى جانب ذلك العديد من المشكلات المنطقية والفلسفية والرياضية ، منها علاقة الواحد بالتعدد ، مفهوم المادة والمكان والزمان والإرادة والخلق ، وهي موضوعات على درجة كبيرة من الخطورة والأهمية ، ولكن الذين نادوا بنظرية الفيض ، من الفلاسفة المسلمين ، نظروا إلى هذه الموضوعات من الجانب العقلي ، دون تفريق بين المبادئ الدينية والمفاهيم المنطقية والوقائع الفيزيائية فأصبح العقل هو الذي يخلق كل شيء وفي هذا إسراف مبالغ فيه لأهمية وامكانيات العقل الإنساني ، إلى الحد الذي جعلوه هو خالق الأشياء .

إن الاعتداد بالعقل ، رغم قصوره ، قاد الفكر الفلسفي إلى اتجاهات غير صحيحة وجعل الفلسفة بعيدة عن كل التفاعلات التي تحدث أمامها وحولها ، مما أثر على دورها الذي أصبح لا فاعلية له ، فالعقل يري الأشياء ويتعامل معها ويفسرها ويضع لها القوانين الملائمة ، التي تحكم العلاقات بينها ، دون الزعم بأنه يخلقها ، أو أن يتحكم المنطق الصوري في قوانينها ، ويلزمها أن تسير وفقاً لقياسه وبراهينه ، ما أود أن أقوله : هو أن النظرة العقلية الصرفة حجبت الرؤية عن الفلسفة وأدت إلى تقلص دورها فاعليته ، وهو من الأخطاء التي ارتكبها اليونان وعوقب آخرون بسببها .

4 . نظرية الطبائع :ـ تنطلق هذه النظرية ، من الفكر القائلة بأن لكل شئ طبيعة خاصة به ، وهو يعمل وفقاً لطبيعته الكامنة فيه . فقد كان أرسطو مثلاً يري بأن الخفة والثقل قوة كامنة في الأشياء[1] فالخفة سبب صعود الأجسام في الفضاء ، والثقل هو علة سقوطها نحو الأرض ، ولما كانت الفلسفة اليونانية نظرية صرفة فإنها أصبغت على الكون طابع عقلاني ، ومثلما يفعل العقل الإنساني في الكون فقد اعتقدوا بأن الأشياء تفعل بطبعها كالإنسان وفي هذا إفراغ الطابع الإنساني على الكون وحوادثه يبدو هذا في غاية

---

[1] محمود قاسم " المنطق الحديث " ومناهج البحث ، ط6 ، القاهرة 1970 ، ص 181 .

الوضوح ، من أنهم فسروا المعرفة بأنها فيض من أخر العقول العشرة ، لذلك فإن المعرفة ضرورية منطقية ثم اسقطوا هذه الضرورة المنطقية على الوجود ، بغض النظر عن الوجود الواقعي في ذاته .

هذه الأفكار لا تفسر بأنها خطأ فقط ، بل هي أثر من أثار العقلية البدائية في التفكير وأضرت بالعلم والبحث العلمي ، وعرقلت تطور العلوم ، فالقول بأن المعرفة ضرورة منطقية ، أي يحكمها اللزوم المنطقي وقوانين يضعها العقل فلا تكون المعرفة صحيحة وحقيقية إلا بالرجوع إلى العقل ، وأحكام المنطق ، وأن أفعال الطبيعة معقولة ، خصوصاً أن العقل يسبغ على الأشياء الثبات وإلا لزام والاطراد ، ويعتبرها خصائص كامنة في الأشياء ، فأرسطو أعلن بأن الأسباب ، قوة كامنة في الأشياء تنتج وتتولد عنها النتائج كما تتولد عن الإنسان أفعاله وتصرفاته التي يقوم بها وفي هذا إعلان مطالبة الطبيعة بأن تحذو حذونا ، كأنما الطبيعة تحمل في داخلها السبب الذي يعمل وفق طبيعته الثابتة والضرورية .

هذه الضرورة والثبات والاطراد والحتمية ، ليست أشياء قائمة في الطبيعة ، إنما هي أفكار وضعها الفلاسفة اليونان ، لتفسير الأحداث سواء كانت عقلية أو فيزيائية فهي علاقات بين الأشياء

وليست أنواعاً أخرى من الكائنات العاقلة ، والتي تعمل مثلما بفعل الفيلسوف اليوناني .

هذه بعض الأخطاء اليونانية ، والتي وجدت في الفلسفة الإسلامية ، بل استمرت بعد ذلك قروناً وقد كان من سوء التقدير والفهم والحظ ، أن أخذ الفلاسفة المسلمون الذين تابعوا الفلسفة اليونانية بهذه الأفكار فأصبحوا موضع اتهامات وانتقادات من كل جانب ، حتى من جانب الفلسفة اليونانية ذاتها ، حيث حوكمت الفلسفة الإسلامية من منظور الفلسفة اليونانية ولما كان الانطباق غير تام ، انكروا هذه الفلسفة واتهموها بالتشويه والتحريف .

كما تعرض التيار المشائي الإسلامي ، للانتقاد والاتهام من داخل الفكر الإسلامي ، باعتباره تياراً غربياً عن الإسلام ، إلى درجة اتهامه بالكفر ، خصوصاً في بعض القضايا ، وكان من نتيجة ذلك أن نظر إلى الفلسفة بريبة وشك ، مما أعاق نموها وتطورها داخل البيئة الفكرية الإسلامية ، رغم أن غرض التيار المشائي الإسلامي هو أن يكون حلقه وصل ما بين الدين الإسلامي والفلسفة اليونانية ، فهو من جهة يؤمن بالإسلام ومن جهة ثانية يعتقد في صحة الفلسفة اليونانية ومن تم قامت عدة محاولات للتوفيق بينهما ، إلا أن النتائج كانت مخيبة للأمل إذ لم يستطيعوا الالتزام الكامل بالتصورات الإسلامية ، كما أنهم لم يستطيعوا مسايرة الفلسفة اليونانية ، في كل

تفاصيلها فكانت محاولاتهم غير أصلية بل هي تلفيقية ، وبدلا من أن تكون حلاً وسطاً كانت موقفاً ثالثاً ، يضاف إلى الموقفين الأولين .

نخلص إلى القول بأن الانتقادات والاتهامات التي وجهت للفلسفة الإسلامية ، هي في الحقيقة موجهة إلى تيار واحد من تيارات الفكر الإسلامي ، وهو التيار والاتجاه المشائي ، وبتعداد أخطاء هذا التيار تبين أن اغلبها يرجع إلى اليونان وفلسفتهم ، كما أن تعميم الاتهام والانتقاد إلى سائر اتجاهات الفكر الإسلامي ، انطلاقاً من هذا التيار، فأن هذا لا يمثل عيباً أو نقصاً لهذا الفكر ، بقدر ما يدل على قصور النظر ، في الحكم على الفكر الإسلامي .

اما القول بأنه ليس هناك ما يمكن أن يطلق عليه فلسفة إسلامية فأن هذا يرجع إلى تحديدنا ومفهومنا للمصطلح " فلسفة " فإذا كان المقصود المصطلح اليوناني المكون من خمسة حروف يتناول موضوعات حددها اليونان ، عن طريق منهجهم الخاص بهم فأن هذا الحكم صحيح أي عدم وجود فلسفة إسلامية ، وأن ما وجد من فلاسفة فهم يتبعون الفلسفة اليونانية ، وهم الذين يمثلون تيار الفلسفة اليونانية في الفكر الإسلامي ، أما كان المقصود بالمصطلح هي الحالة الذهنية التي يتوجه بها العقل لدراسة موضوعات ملحة وضرورية ، في أي حضارة فأن موضوع المصطلح موجود بكل فاعلية في الفكر الإسلامي ، وليس ثمة مبرر لإغفال هذه الحقيقة .

أخيراً إذا كان مصطلح ومفهوم الفلسفة ، قد تغير منـــد اليونـــان إلى يومنا هذا عدة مرات ، وفقاً لمتطلبات وظروف فتـــرة تاريخيـــة وفكرية ، فلماذا لا نستوعب ، بأن هذا المصطلح قد تغيـــر وتطـــور في الفكر الإسلامي ، كما أنه ليس من الموضوعية محاكمة الفلـــسفة الإسلامية ومن روائها الفكـــر الإســـلامي ، مـــن منظـــور الفلـــسفة اليونانية ، فإذا كان لابد من محاكمتها من هذا المنظور ، فـــأن ذلـــك لا يخص كل الفكر الإسلامي ، إنما يخص التيـــار المـــشائي فقـــط ، إذا ذاك سنري إذ بوضـــوح ، أن أخطـــأ هـــذا التيـــار أو الاتجـــاه هي في الحقيقة أخطاء يونانية صرفة ، ولا يمكن لعـــين نـــاظرة أن تخطئ في رؤيتها !! .

المراجع

1 . يوسف كرم : " تاريخ الفلسفة اليونانية " دار القلم ــ بيروت 1982 .

2 . رينيه تاتون " تاريخ العلوم العام ــ القديم والوسيط " ترجمة على مقلد المؤسسة الجامعية بيروت 1988 .

3 . جميس جينز " الفيزياء والفلسفة " ترجمة جعفر رجب ، دار المعارف مصر ، 1981 .

4 . ابن رشد " تفسير ما بعد الطبيعة " دار الشروق ، بيروت 1967 .

5 . الكندي رسائل الكندي الفلسفية تحقيق محمد عبدالهادي ابوريدة . دار الفكر العربي القاهرة ، 1950 .

6 . مصطفي عبدالرزاق " تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية مكتبة النهضة المصرية .

7 . إبن سينا " منطق المشرقين " تقديم شكري النجار ، دار الحداثة بيروت ، 1980 .

8 . يحيى هويدي " مقدمة في الفلسفة العامة ، دار النهضة العربية ، القاهرة 1972 .

9 . ديكارت " مبادئ الفلسفة " ترجمة عثمان أمين " دار النهضة المصرية القاهرة ، 1960 .

10 . محمود قاسم " المنطق الحـــديث ومنـــاهج البحـــث " ط 6 ، القاهرة 1970 .
11 . جون كيمني " الفيلسوف والعلم " ترجمة أمـــين الـــشريف ، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر ، بيروت 1965 .